أحلام يقظة

نسمة طارق

حب.. لم أبالِ بتلك الكلمة قبل ذلك اليوم، فوجدتها تطوي في ثنايا حرفيها الكثير من المعاني، قد رأيت بعضا منها واضحا جليا في عينيها وهي تحكي عنه لنا، لم تكن صديقتي المقربة، لكن بعد ذلك اليوم اقتربت منها أكثر لا لشيء سوى أن أستشف باقي معانيها، وأصبحت بعد وقت قصير أقرب شخص لي. خوفي من المستقبل وهلعي من أي شيء مجهول كوّنا حولي إطارا دائريا أغلقته على نفسي بإرادتي، وقلت لن يفوتني شيء من الحياة؛ فهي تعيش وتجرب وتحب وتنقل لي خبراتها دون مجازفة مني.

كانت تصف إحساسها به بوصف غريب لم أسمعه من أي فتاة قبلها، كانت تقول إنها تشعر بأنها أمه. كانت تصمم أن تطعمه بيديها في لقاءاتهما المتباعدة، وأن تشرب الماء بعده، هي من يوقظه كل صباح، وفي بعض الأحيان كانت تحكي له حكايات النوم كالطفل الصغير، أما هو فكان يترك لها جوار باب بيتها في السابعة من كل صباح زهرة بيضاء يزرعها في حديقته الخاصة فقط لأجلها، وكان يكتب لها الشعر كل مساء، كم كانت قصة حب غنية بمشاعر فريدة ومواقف تشبه الأساطير، علمتني ما هو الحب المجرد من الغايات، علمتني أن الحب الحقيقي يغني كل طرف بالآخر عن الناس أجمعين، كنت أتمنى أن أعيش قصة مثلها، وأن أجد مثل ذلك الرجل الذي جرى مجرى الدم في عروق صديقتي.

جعلتني أكتفي بقصتها معه عن أي رغبة في معرفة رجل يكون خاصا بي،

اكتفاء جعلني أعيش قصة مثلها في خيالي ظل هو البطل، أما هي فتبدلت بي.

لم أكرهها يوما لأنها كانت بطلة القصة الحقيقية وأنا بطلة الخيال؛ لأن حبها الأسطوري له كان سبب تعلقي به، كم كنت أتمنى أن أراه، فسألتها ذات يوم: لماذا لا يأتي لكِ في الجامعة مثل باقي الفتيات؟ كانت ترد بكبريائها المعتادة: لنا مكاننا الخاص الذي نتقابل فيه فلماذا نفعل مثل هؤلاء الحمقى؟!

رسمت له صورة في خيالي مشابهة تماما لصورته التي وصفتها لي.. «أسمر له عينان تشبهان عينيّ».. هكذا كانت تقول.

تغيبت فترة طويلة فاشتد قلقي عليها وعليه، ربما حدث له مكروه؛ فهي تتألم له أكثر من ألمها لنفسها، كان بيتها بعيدا.. وصلت إليه بصعوبة.. أول شيء لفت انتباهي في حديقة منزلها تلك الزهور البيضاء المنتشرة في كل مكان والتي جعلتني أشعر بأنني أسير على بساط أبيض، طرقت الباب دقات متتالية، كان صوت دقات قلبي أعلى منها، وبعد دقيقة فتحت لي امرأة عجوز، عندما سألتها عن أحوالها، دمعت عيناها وأشارت بيدها إلى غرفتها.

سرتُ ناحية الغرفة ببطء جعلني أشعر أنني أسير منذ عام، دخلت غرفة لم أرَ مثلها ولن أرى، كان طلاؤها بلون زهرات الحديقة، مرسوما على كل الجدران وجه لشخص واحد مرة ضاحكا ومرة باكيا ومرة نائما، انتفض قلبي وتساءل: أهذا هو؟ أما السرير فكان كبيرا، لكن يبدو أن أحدا لم ينم عليه منذ سنوات، تكسوه مئات الزهرات الذابلة، حتى إنه قد تساقط الكثير حوله. وعن يميني كانت مرآة كبيرة رُسم عليها أيضا الوجه نفسه، وكانت تجلس أمامها بفستان أبيض قصير تمشط شعرها الأسود الطويل البراق، أقلقني حالها فتحركت لأقترب منها فتعثرت قدمي في الأوراق المبعثرة على الأرض فأخذتُ واحدة أقرأها فكانت أحد الأشعار التي يكتبها إليها، لكن

لماذا ملقاة هكذا؟ التفتُّ لها أسألها، فوجدتها تقص شعرها بعشوائية دمرت كل جاذبية له، صرخت بها: كفى. فانتبهت أخيرا لوجودي ونطقت بشكل متقطع أنه يحب الشعر القصير، فسألتها: أأنتِ بخير؟ لم تجب، فسألتها: أهو بخير؟ ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: نعم. ثم استدارت عني وظلت تردد أغنية غريبة لم أسمعها من قبل ربما تكون من هذه الأشعار، ثم قامت وأخذت تلملم شعرها الملقى حولها، ووضعته بجوار الزهور الذابلة، وظلت تبكي وتضحك في آن واحد، أفزعني حالها، فركضت إلى العجوز أسألها عمّا ألم بها، وهل حدث لحبيبها شيء..

علمت بعدها أن حبيبها هذا ما هو إلا وهم، وقصتها ما هي إلا خيال، وما هي إلا مريضة، فشلت في الواقع، فقررت الهروب إلى الخيال.

حينما عدت إلى بيتي أخذت أضحك حتى بكيت، وأتذكر قصتها الجميلة التي جذبتني تفاصيلها إلى الشخص الوهمي الذي عشقتُه، وعشقَتْه هي قبلي، ودخلتُ في دوامة الخيال حتى أخرجني صوت أمي، فوجدت شعري منثورا حولي وأردد: «إنه يحب الشعر القصير».

لم تكن هي سبب ما أنا فيه؛ فهي لم تجن عليّ، كل ما حدث أن مريضة اتبعت مريضة..